استراتيجية الخطاب الحجاجي
في كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)
لمعاوية

Argumentative speech strategy In Imam Ali's Covenant (peace be upon him) to Muawiya

أ.م . د. لمى عبد القادر خنياب

كلية الآداب– جامعة القادسية

Asst. Prof. Dr. Lama Abdelkader Khneib,

faculty of Arts,

University of Qadisiyah.

ملخص البحث

ينطلق البحث من فرضية يتبناها الباحث ومفادها أنَّ لكل خطاب حجاجي استراتيجية تحكمه وتهيمن على مفاصله فتحدد مسارات الخطاب، وتتجلى عبر آليات الحجاج المنطقية، واللغوية فتجد أنَّ أدوات الحجاج في مجملها وظفت بعناية لخدمة هذه الاستراتيجية بوصفها مهيمنة على الخطاب بعامة.

وجرى تطبيق هذه الفرضية على كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) لمعاوية بن أبي سفيان، ويمكن تقسيم كتابه (عليه السلام) على ثلاث وحدات موضوعية، تكون في مجملها بمثابة عتبات للنص عند تحليله، اصطنع لها البحث عنوانات، وهي:

العتبة الأولى: (ما لكَ وهذا).

العتبة الثانية: (فضل آل محمد عليهم السلام).

العتبة الثالثة: (قلب الحجج).

النص بعتباته الثلاثة المفترضة تهيمن عليه استراتيجية التهميش والتقليل من شأن معاوية وحطه عن مقام الند والنظير لأمير المؤمنين (عليه السلام).

وقد عمد البحث لتوظيف آليات الحجاج للتحقق من فرضية البحث.

Abstract

The research starts from the premise (embraced by the researcher) That there is a strategy rules every argumentative speech and dominated by it. And it's manifested through logical and linguistic argument tools employed carefully to serve this strategy because it's dominated by the whole speech. And this hypothesis had been applied on Imam Ali Ibn Abi Talib covenant (peace be upon him) to Muawiya Ibn Abi Sufyan and this covenant Can be divided into three logical units the most of them are thresholds for the text when it analysed. the research made for it three Ti hes and they are the first threshold (this is not your specialty) the second threshold (Muhammad's family kindness the third threshold (opposite argument) the text with it's three supposed thresholds controled by the strategy of exclusion; belittle muawiya and he is no match for imam Ali (peace be upon him) and the research has employed argument mechanisms to verify the research hypothesis.

المقدمة

ينطلق البحث من فرضية يتبناها الباحث ومفادها أنَّ لكل خطاب حجاجي استراتيجية تحكمه وتهيمن على مفاصله فتحدد مسارات الخطاب، وتتجلى عبر آليات الحجاج المنطقية، واللغوية فتجد أنَّ أدوات الحجاج في مجملها وظفت بعناية لخدمة هذه الاستراتيجية بوصفها مهيمنة على الخطاب بعامة.

وجرى تطبيق هذه الفرضية على كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) لمعاوية بن أبي سفيان، وينقسم كتابه (عليه السلام) على ثلاث وحدات موضوعية فكانت بمثابة عتبات للنص عند تحليله، اصطنع لها البحث عنوانات:

العتبة الأولى: (قطع صلة الخصم بالحجة).

العتبة الثانية: (مقام المتكلم وفضله)، (فضل آل محمد عليهم السلام).

العتبة الثالثة: (قلب الحجج).

النص بعتباته الثلاثة المفترضة تهيمن عليه استراتيجية التهميش والتقليل من شأن المخاطب (معاوية بن أبي سفيان) وحطه عن مقام الند والنظير للمتكلم (أمير المؤمنين) (عليه السلام).

وقد عمد البحث لتوظيف آليات الحجاج للتحقق من فرضية البحث.

توطئة

يتأسس الحجاج على فكرة الإقناع واستمالة أذهان السامعين، فموضوع الحجاج «هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من طروحات أو أن تزيد من درجة ذلك التسليم»[1].

و(الحجاج عملية اتصالية تعتمد الحجة المنطقية بالأساس وسيلة لإقناع الآخرين والتأثير فيهم)[2].

إنَّ طبيعة المتلقي هي التي تحدد

شكل الخطاب إن كان خطاباً حجاجياً أم إقناعياً فمتى ما سلَّم المتلقي بالمقدمات (التي قدَّمها المتكلم فهو مقتنع من طرفه، ومتى ما ردَّها أو رفضها فهو محاجج، ويتمثل ردّ ورفض المتلقي في استخدمه [كذا] لحجج قد تعيق حجج المتكلم من بلوغ هدفه)[٣].

ويتأسس النص الحجاجي على ستة مكونات: النتيجة (الدعوى)، والمقدمات، والتبرير، والدعامة، ومؤشر الحال، والتحفظات[٤].

وبناء على ما تقدم يطرح البحث أسئلته:

(١) إذا كانت الغاية من الحجاج هي الإقناع فهل كان الإمام (عليه السلام) قاصداً إقناع معاوية حين ردَّ عليه؟.

(٢) هل تحققت القناعة عند معاوية بعد قراءته لكتاب أمير المؤمنين (عليه السلام)؟.

والجواب عن السؤال الثاني: (لا) بدليل استمرار معاوية في قتال أمير المؤمنين بل وقتال ابنه الحسن (عليهما السلام) من بعده.

(٣) إذن ما الذي دفع أمير المؤمنين إلى المحاججة؟.

للإجابة على هذه الأسئلة أقول: لابدَّ من الإدراك أنَّ للنص طبقات من المتلقين، ولكتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) جملة متلقين: المتلقي الأول هو معاوية بن أبي سفيان وهو المخاطب المباشر لهذا الكتاب، إذ كان الباعث على كتابة أمير المؤمنين (عليه السلام) لهذا الكتاب هو الرد على كتاب سابق أرسله معاوية لأمير المؤمنين (عليه السلام).

والمتلقي الثاني هم الناس بعامة سواء أكانوا من أنصار معاوية أم من أنصار أمير المؤمنين (عليه السلام) إذ كانت الكتب تقرأ في الأمصار على هيأة خطب[٥]، وبناء عليه فإنَّ لكل طبقة منهم مرتبة من مراتب الحجاج تمارس عليه من قبل المتكلم، فمن

كان منهم يسمع فيقنع فحجاجه إقناعي أما من يسمع ويحاجج وينكر فينتقل الحجاج معه إلى مرتبة الإفحام.

وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن الإمام (عليه السلام) لم يستهدف معاوية بالإقناع لأنَّه (عليه السلام) ذكر غير مرة بأنَّه لا يوجه خطابه لمعاوية، ومن قبيل ذلك قوله (عليه السلام): «**ألا ترى- غير مخبر لكَ- ولكن بنعمة الله أحدث**»[٦]. وقال أيضاً: «**وهذه حُجتي إلى غيرك قصدها**»[٧].

إنَّ تعاليه (عليه السلام) عن محاججة معاوية يستهدف إسقاط معاوية من مرتبة الكفء والنظير في الحجاج؛ لذا يعلن الإمام (عليه السلام) أنَّه يوجه خطابه لغيره وليس له فهو ليس أهل للمناظرة والحجاج.

وعليه يكون الهدف من الحجاج إقناع الناس بزيف حجج معاوية وردِّها عليه، وهو إلى جانب الإقناع للمتلقين يحقق الكشف عن الحقيقة وإبطال زيف معاوية وإفحامه وإسكاته، وبهذا يكون الحجاج في كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) استهدف إقناع المتلقين الثواني (معسكر أمير المؤمنين (عليه السلام) ومعسكر معاوية) وإفحام المتلقي الأول (معاوية).

إستراتيجية الخطاب الحجاجي

أزعم بأنَّ لكل خطاب حجاجي إستراتيجية تحكمه تتجلى عبر آليات الحجاج المنطقية، واللغوية فتجد أنَّ أدوات الحجاج في مجملها وظفت بعناية لخدمة هذه الإستراتيجية بوصفها مهيمنة على الخطاب بعامة.

وقد وضع أمير المؤمنين (عليه السلام) تهميش معاوية والاستخفاف بمقامه إستراتيجية لخطابه الحجاجي في هذا الكتاب، وقد تأتى له (عليه السلام) ذلك عبر جملة أمور:

أولاً: إشعار معاوية بأنَّ الخطاب

غير موجه له، وهو غير مستهدف بهذه الحجج، في إشارة واضحة للاستخفاف بشخصه وزحزحته عن مرتبة النظير المحاجج. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في التوطئة.

ثانياً: إزاحة معاوية من مركزيته في كتابه الذي وجهه إلى أمير المؤمنين إلى الهامش في كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) عبر قطع علاقته وبت صلته- أعني معاوية - بالتهم التي كالها لأمير المؤمنين (عليه السلام) في كتابه، وسيأتي تفصيل هذا.

ثالثاً: قلب الحجج: استعمل الإمام (عليه السلام) حجج معاوية ذاتها في الرد عليه، فتحولت حجج معاوية الداعمة لموقفه حجج داعمة لموقف أمير المؤمنين(عليه السلام)، مما جعل معاوية موضع سخرية بالحط من فطنته، مما يعزز فكرة الضآله والهزال له في مقابل مقامه (عليه السلام).

العتبة الأولى:
(قطع صلة الخصم بحجته)

يشتمل هذا الجزء من الخطاب على حجتين مختومتين بحكم، وهما:

الحجة الأولى:

افتتح معاوية كتابه بذكر رسول الله (صلى الله عليه وآله) وفضله فقال: (أما بعد فإنَّ الله تعالى جدُّه اصطفى محمداً (عليه السلام) لرسالته، واختصّه بوحيه وتأدية شريعته، فأنقذ من العماية، وهدى به من الغَواية، ثم قَبَضه إليه رشيداً حميداً، قد بلَّغ الشَّرع، ومَحَقَ الشِّرك، وأخمدَ نار الإفْك، فأحسن الله جزاءَه، وضاعفَ عليه نعَمَه وآلاءه)[8].

فرد عليه (عليه السلام) بقوله: «**أما بعد فقد أتاني كِتابُكَ تذكُرُ فيه اصطفاءَ الله محمداً (صلى الله عليه وآله) لدينِهِ، وتأييدَهُ[9] إيَّاه بمن أيَّدَهُ من أصحابِهِ؛ فلقد خبَّأَ[10] لنَا الدَّهرُ منكَ عَجَباً؛ إذ طفقتَ تُخبِرُنا ببلاءِ الله عندنا، ونعمه**

علينا في نبينا، فكنتَ في ذلك كناقل التمر إلى هَجَرَ، أو داعي مُسَدِّدِهِ إلى النضال»[11].

يبعث ردُّ الإمام (عليه السلام) لا شعورياً على الابتسام، إذ وضع معاوية موضع السخرية باستعماله حجة لا حجة له فيها بتركيزه (عليه السلام) على المفارقة في كلام معاوية، فاستعمل (عليه السلام) القياس المضمر في الرد عليه ويمكن تمثله على النحو الآتي:

(١) المقدمة الصغرى: (نحن آل محمد صلى الله عليه وآله).

(٢) المقدمة الكبرى: (نعمة الله على محمد واصطفائه إياه).

النتيجة: إذن محمد (صلى الله عليه وآله) وآله أصحاب هذا الفضل.

النتيجة الضمنية: (سذاجة طرح معاوية بتعريف آل محمد بنعم الله على محمد وآله صلى الله عليه وآله).

التمثيل:

المثل هو: (قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما للآخر ويصوره)[12] ولم يغب عن ذهن خطباء العربية ما للمثل من أثر إقناعي في نفس المتلقي إذ يقوم المثل مقام الدليل فيؤثر في نفس متلقيه مثل تأثير الدليل والحجة[13]. ولم يفت أمير المؤمنين(عليه السلام) أن يوظف التمثيل كوسيلة للإقناع والافحام في آن واحد، إذ دعم (عليه السلام) حجته بحجة غير مصنوعة[14] وهي المثل العربي المتداول: «**فكنتَ في ذلك كناقل التمر إلى هَجَرَ**»، دعماً للنتيجة المبتغاة، بل دعمها بحجة أخرى مبتكرة (مصنوعة)[15] من قبله ارتكز فيها على التشبيه الذي حذفت منه أداة التشبيه للعلم بها فقال (عليه السلام): «**داعي مُسَدِّدِهِ إلى النضال**» والتقدير (كداعي) بدلالة العطف بـ(أو).

وكان معاوية قد ساق كلامه هذا

في فضل الرسول (ﷺ) ليكون قاعدة مشتركة متفق عليها مع متلقي الخطاب جميعاً ومنهم أمير المؤمنين (عليه السلام)، في محاولة منه لاستدراج متلقي خطابه إلى الإذعان والتسليم، وقد وسمت هذه الاستراتيجية في الأدبيات الحجاجية الغربية بـ(لعبة الولاء الكاذب)، إذ يقصد المجادل أن يقود خصمه إلى قبول الدليل المطروح فيأخذ فكرة الدليل من متعلقات الخصم نفسه لتكون أعظم تأثيراً فيه[١٦]، قال ابن وهب: (وحق الجدل أن تنبئ مقدماته بما يوافق الخصم عليه، وإن لم يكن نهاية الظهور للعقل، وليس هذا سبيل البحث؛ لأنَّ حق الباحث أن يبني مقدماته بما هو أظهر الأشياء في نفسه)[١٧]، لكن ما يبعث على الدهشة أنَّه حتى المسلمات من الأمور لم تسلم لمعاوية في كتابه هذا، وإن لم تكن هي غايته و ما يتلوها من الكلام هو جوهر حجته- لله درك يا سيدي يا أبا الحسن- فقد قطع عليه السبيل الموصل إلى الحجة.

الحجة الثانية:

قال معاوية: (إنَّ الله سبحانه اختصَّ محمداً (ﷺ) بأصحابٍ أيّدوه وآزروه ونصروه وكانوا كما قال الله سبحانه﴿ **أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾[١٨]، فكان أفضلهم مرتبة، وأعلاهم عند الله والمسلمين منزلة، الخليفة الأول الذي جمع الكلمة، ولمَّ الدعوة، وقاتل أهلَ الرِّدّة، ثم الخليفة الثاني الذي فتح الفتوح، ومصَّر الأمصار، وأذلَّ رقاب المشركين، ثم الخليفة الثالث المظلوم الذي نشر الملَّة وطبّق الآفاق بالكلمة الحنيفية)[١٩].

يستمر أمير المؤمنين (عليه السلام) باستراتيجيته القائمة على تسفيه مزاعم معاوية، فيرد على كلامه المتقدم بقوله (عليه السلام): «**وزعمت**

أن أفضل الناس في الإسلام فلان وفلان، فذكرت أمراً إنْ تمَّ اعتزلكَ كُلُّهُ، وإنْ نَقَص لم يلحقكَ ثَلْمُهُ. وما أنتَ والفاضلَ والمفضولَ والسائسَ والمسوسَ! وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين الأولين وترتيب درجاتهم، وتعريف طبقاتهم! هيهات لقد حنَّ قِدْحٌ ليس منها، وطفق يحكم فيها مَن عليهِ الحكم لها!»[٢٠].

تراه (عليه السلام) لم يناقش مدى صحة كلام معاوية وصواب حجته- وهذا ما كان معاوية ينوي استدراج الإمام إليه- إذ ظنَّ معاوية أنَّ الإمام (عليه السلام) سيفاضل بينه (عليه السلام) وبين الصحابة ويُظهر سبقه عليهم، ولمَّا كان لهذه المفاضلة مَن هو مؤيد أومعارض، فإن معاوية يحاول ضم المعارضين لهذه المفاضلة إلى صفه وإن كانوا هم أنفسهم غير راضين عن معاوية وأفعاله وسيرته، فيتخذ معاوية من تقديم الإمام نفسه على الشيخين حجة ضده (عليه السلام)، لكنَّه سرعان ما أدرك فخاخ معاوية وفوَّت عليه ذلك، فصوَّب حجته لمعاوية نفسه فجرَّده من برهانه وأخرجه خارج دائرة حجته «فذكرت أمراً إنْ تمَّ اعتزلكَ كُلُّهُ، وإنْ نَقَص لم يلحقكَ ثَلْمُهُ» بلحاظ التشكيل الأسلوبي للحجة المرتكزة على التوازي التركيبي بين (إنْ تمَّ اعتزلكَ كُلُّهُ، وإنْ نَقَص لم يلحقكَ ثَلْمُهُ) وما ينطوي عليه من مفارقة ضمنها التقابل الدلالي بين (تم ≠ نقص، وكله≠ ثلمه) الذي أفضى إلى تناغم إيقاعي يؤثر في استمالة متلقيه للجمالية التي أكسبها هذا الايقاع للنص.

ثم أردف (عليه السلام) مستفهماً باستفهام حجاجي[٢١]، خارج مخرج التعجب المشوب بالسخرية: (وما أنتَ والفاضلَ والمفضولَ والسائسَ

والمسوسَ!) وأعقبه باستفهام آخر يحمل الغرض نفسه: (وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين الأولين...!).

ثم عزز حجته بشاهد من كلام العرب؛ وذلك لأن الشواهد المأثورة بمثابة برهان جاهز قد ألفه الناس وتسالموا على صوابه: (لقد حنَّ قِدْحٌ ليس منها).

أفضت هذه الحجة إلى تجريد معاوية من استدلالاته جمعاء بل غدا صغير الشأن ضئيل المقام؛ وليُحكم (عليه السلام) طوق التحجيم حوَّل خطابه من التعجب المشوب بسخرية إلى التوبيخ والتقريع، إذ قال (عليه السلام):

«ألا تربع أيُّها الإنسان على ظَلَعِكَ[٢٢]، وتعرف قصور ذرْعِكَ، وتتأخر حيث أخَّرَكَ القَدرُ! فما عليك غلبةُ المغلوب ولا ظفرُ الظافرِ! وإنَّكَ لذهَّاب في التيه، روَّاغٌ في القصد»[٢٣].

في هذا المقطع من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) تحددت المواقع (وتتأخر حيث أخَّرَكَ القَدرُ) وكشفت هوية معاوية بجلاء (وإنَّكَ لذهَّاب في التيه، روَّاغٌ في القصد) وكأنَّ هذه العبارة لب القول، إذ تخير لها (عليه السلام) عناصر لغوية تخدم دلالتها فانتخب لوصف معاوية صيغة المبالغة (فعَّال) في (ذهَّاب، وروَّاغ) ليسبغ دلالة التكثير والمبالغة على الوصف، فضلاً عن تأكيد العبارة بمؤكدين: (إنَّ، واللام)، فتختتم هذه الحجة بهذا الحكم.

العتبة الثاني:

وعنوانها (فضل آل محمد عليهم السلام)

بعد أن أصدر الإمام (عليه السلام) حكمه بمعاوية التفت إلى بيان فضل آل محمد (عليهم السلام) على سائر المسلمين بقوله: **«ألا ترى- غير مخبر لك ولكن بنعمة الله أُحدث- أنَّ قوماً استُشْهدوا في سبيل الله تعالى مِن المهاجرين والأنصارِ، ولكلٍّ فضلٌ، حتى إذا**

استُشهد شهيدُنا قيل: سيّد الشهداء، وخصَّه رسول الله (صلى الله عليه وآله) بسبعين تكبيرةً عند صلاتِهِ عليه! أولا ترى أنَّ قوماً قُطعتْ أيدِيهِم في سبيل الله- ولكلٍّ فضلٌ- حتى إذا فُعل بواحدنا ما فُعِل بواحدهم، قيل: الطيار في الجنة وذو الجناحين... لم يمنعنا قديم عزِّنا، ولا عادي طولِنا على قومكَ أن خالطناكم بأنفسِنا؛ فنكحنا وأنكحنا فِعلَ الأكفاء، ولستم هناك! وأنَّى يكون ذلك ومِنَّا النبي ومنكم المكذب، ومنا أسد الله ومنكم أسد الأحلاف، ومنا سيدا شباب أهل الجنة، ومنكم صبية النار، ومنَّا خير نساء العالمين ومنكم حمّالة الحطب، في كثيرٍ مما لنا وعليكم! فإسلامنا قد سُمع، وجاهليتُنا لا تُدفع، وكتاب الله يجمع لنا ما شذَّ عنَّا، وهو قوله سبحانه: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ﴾[٢٤] وقوله تعالى ﴿أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢٥] فنحن مرة أولى بالقرابة وتارة أولى بالطاعة»[٢٦].

يفتتح (عليه السلام) هذا المقطع بقوله: (ألا ترى غير مخبر لك ولكن بنعمة الله أُحدث) مؤكداً هامشية معاوية، إذ يأنف (عليه السلام) من توجيه الخطاب له، وكأنَّ الخطاب تحول إلى إقناع المتلقي الثاني وهم الناس جميعاً سواء كانوا من أنصار أمير المؤمنين (عليه السلام) أم من أنصار معاوية نفسه، يأخذ (عليه السلام) بالكشف عن فضائل آل محمد (عليهم السلام) بعد أن أحكم تهميش معاوية، ولمّا كان (عليه السلام) رأس بني عبد المطلب في زمانه مما يضمن له (عليه السلام) المركزية في الخطاب فهو بؤرة الفضل، في مقابل موقعية معاوية الهامشية.

وتكسب المفارقة في الموازنة التي عقدها أمير المؤمنين (عليه السلام) بين آل محمد (عليهم السلام) وبني أمية النص جمالاً

وعمقاً لتكون أُساً للاقناع بتوظيف المتوازيات التركيبية:

(١) مِنَّا النبي، ومنكم المكذب.

(٢) منا أسد الله، ومنكم أسد الأحلاف.

(٣) منا سيدا شباب أهل الجنة، ومنكم صبية النار.

(٤) منَّا خير نساء العالمين، ومنكم حمّالة الحطب.

ولا يفوته (عليه السلام) تعزيز كلامه بشواهد قرآنية بوصفها أدلة قاطعة لتدعيم صحة ما ذهب إليه، فيكون بذلك ألقى الحجة على خصمه وألزمه الصمت إزاء ما ذكر. ثم ختم (عليه السلام) حججه بأسلوب التوازي التركيبي (فنحن مرة أولى بالقرابة/ وتارة أولى بالطاعة) القائم على بنية المماثلة بين (مرة/ تارة، القرابة/ الطاعة) فضلاً عن تكرار (أولى)، مما يكسب النص نغمة مستحبة يستسيغها المتلقي.

العتبة الثالثة: (قلب الحجج)

يستمر أمير المؤمنين (عليه السلام) بسياسة بت الصلة بين معاوية وما يرصده من مآخذ على أمير المؤمنين فيتعالى (عليه السلام) على مناقشة فحوى الحجة ومن قبيل ذلك ردّه (عليه السلام) على قول معاوية:

(لقد حسدتَ أبا بكر والتَويتَ عليه، ورُمتَ إفسادَ أمره، وقعدت في بيتك، واستغويتَ عصابة من الناس حتى تأخروا عن بيعته، ثم كرهتَ خلافة عمر وحَسَدته واستطلت مدته، وسررتَ بقتله، وأظهرت الشماتة بمصابه، حتى حاولت قتلَ ولدِه لأنه قتل قاتل أبيه، ثم لم تكن أشدَّ منك حسداً على ابن عمك عثمان، نشرت مقابحه، وطويت محاسنه)[٢٧].

ويجمل الإمام (عليه السلام) الرد على تهمة الحسد هذه بقوله:

«وزعمت أني لكلّ الخلفاء حسدت

وعلى كلّهم بغيت: فإن يكن ذلك كذلك فليس الجناية عليك فيكون العذر إليك.

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها[28]»[29].

إنَّ قطع صله معاوية بالتهمة التي ألصقها بأمير المؤمنين (عليه السلام) حجة تمعن في تسفيه موقفه أمام أصحابه ومريديه. وقد استعمل الإمام (عليه السلام) لسبك حجته بناء أسلوبياً قائماً على المفارقة الناتجة من التوازي في قوله: (فليس الجناية عليك/ فيكون العذر إليك) باستثمار المتقابلات: (الجناية ≠ العذر ، و إليك ≠ عليك) وما فيهما من أثر في جمالية الإيقاع المؤثر، ولا يعزب عن بالنا أثر المفارقة في تعزيز إستراتيجية الاستخفاف والسخرية من موقعية معاوية في الخطاب.

ثم يتحول الإمام (عليه السلام) في هذا الجزء من الكتاب إلى ردِّ التهم التي كالها عليه معاوية، لكنَّه (عليه السلام) لا ينكرها أو يبررها بل يعتمد إستراتيجية قلب الحجة على صاحبها، إذ يتحول برهان الخصم إلى حجة عليه، وهذا الأسلوب في الحجاج لا يفارق الإستراتيجية العامة التي اتبعها الإمام (عليه السلام) في التحاجج مع معاوية وأعني سياسة التهميش وتسفيه الرؤى والأقوال، كرده على قول معاوية:

(وما من هؤلاء إلا مَنْ بغيت عليه ، وتلكأت في بَيعته، حتى حُملتَ إليه قهراً ، تساق بخزائم الأقسار كما يُساق الفحل المخشوش)[30].

بقوله (عليه السلام):

«وقلت: إني كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش[31] حتى أبايع، ولعمر الله، لقد أردت أن تذمّ فمدحت، وأن تفضح فافتضحت، وما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلوما ما لم يكن شاكاً في دينه، ولا مرتاباً بيقينه، وهذه

حجّتي إلى غيرك قصدها، ولكني أطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذكرها»[٣٢].

فتراه (عليه السلام) يقلب حجة معاوية لصالحه (عليه السلام) فتكون له وليست عليه، فضلاً عن الاستخفاف بفكر معاوية بقوله (عليه السلام): (ولعمر الله، لقد أردت أن تذمّ فمدحت، وأن تفضح فافتضحت) فأثبت (عليه السلام) أنَّ معاوية لا يحسن التفكير والقول فعادت سهامه إلى نحره، يتناغم هذا مع البناء الفني لهذه الحجة بتوظيف التقابل الدلالي المفضي إلى مفارقة مدهشة في قالب متوازٍ إيقاعياً وتركيبياً:

(أردت أن تذمّ فمدحت/ وأن تفضح فافتضحت)، ومثله جاء بناء قوله: (لم يكن شاكاً في دينه/ ولا مرتاباً بيقينه) غير أنَّه تأسس على بنية المماثلة؛ وقد تكرر غير مرة أنَّ بنية التوازي التركيبي الإيقاعي حين يكون مقتضاها متعلق بمعاوية تجدها مؤسسة على التقابل الدلالي المفضي إلى المفارقة، على حين يتمحور التوازي على بنية المماثلة حين يكون فحوى الكلام متعلق بأمير المؤمنين أو آل بيت النبي (صلى الله عليه وآله)، وهذا يدعم مذهبنا في تطويع المفارقة لخدمة خطاب الاستخفاف والتهميش الذي انتهجه أمير المؤمنين (عليه السلام) تجاه معاوية في هذا الكتاب.

ولا يغادر (عليه السلام) هذه الحجة حتى يؤكد تعاليه (عليه السلام) على خطاب معاوية: (وهذه حجّتي إلى غيرك قصدها) استجابة للإستراتيجية المهيمنة على الخطاب.

والحجة الوحيدة التي صرّح (عليه السلام) بأنّها موجهة لمعاوية: (ثم ذكرت ما كان من أمري وأمر عثمان: ولك أن تجاب عن هذه لرحمه منك).

أعتمد فيها (عليه السلام) سياسة قلب الحجة بقوله:

«فأينا كان أعدى له وأهدى إلى

مقالته؟ أمن بذل له نصرته فاستقعده و استكفّه؟ أم مَن استنصره فتراخى عنه وبثّ المنون إليه، حتى أتى قدره عليه؟

كلّا والله لـ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٣٣]، وما كنت أعتذر من أنّي كنت أنقم عليه أحداثا، فإن كان الذنب إليه إرشادي و هدايتي له، فرُبَّ ملوم لا ذنب له.

وقد يستفيد الظنّة المتنصّحُ[٣٤]

﴿وما أردت إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ * وَ ما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٣٥]»[٣٦].

وهنا وظَّف (عليه السلام) في كلامه المفارقة التركيبية منتخباً لها الاستفهام الحجاجي الخارج مخرج التعجب قالباً تركيبياً، التي يمكن ترسيمها في شكل رقم (١).

داعماً حجته بالدليل القرآني الذي ينطبق على حال معاوية مع عثمان، فيقلب (عليه السلام) السحر على الساحر، ثم يكشف (عليه السلام) عن حقيقة موقفه مع عثمان مسلطاً الضوء على الثنائية الضدية:

(١) (الملوم ≠ المذنب) في قوله: «فربّ ملوم لا ذنب له».

(٢) (الناصح ≠ المتهم) في قول الشاعر: (وقد يستفيد الظنّة المتنصّح).

ويختتم معاوية كتابه بتهديد يوجهه للإمام وأصحابه: **(وليس لك ولأصحابك عندي إلا السيف. والذي لا إله إلا هو لأطلُبنّ قتلة عثمان أين كانوا)**[٣٧].

وقد ردَّ (عليه السلام) على هذا التهديد باستخفافه المعهود بكلام معاوية: **«وذكرت أنه ليس لي عندك ولأصحابي إلا السيف: فلقد أضحكت بعد استعبار: متى ألفيت بنو عبد المطلب عن الأعداء ناكلين، وبالسيوف مخوّفين!»**[٣٨].

مرتكزاً فيه على أمرين: الأول هو التصريح بالسخرية من تهديد معاوية: (فلقد أضحكت بعد استعبار)، والثاني انتخاب الاستفهام الخارج لمعنى التعجب: (متى ألفيت بنو عبد المطلب ...) وتحديداً الاستفهام بـ (متى) الدالة على الزمان التي تتواشج مع قوله لاحقاً: (وسيوف هاشمية، قد عرفت مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدّك وأهلك) في إحالة واضحة على أيام بني عبد المطلب على بني أمية ولاسيما ببدر، ولا يفوتنا الثنائية التركيبية: (عن الأعداء ناكلين/ وبالسيوف مخوّفين) فتجد بنية التوازي ترتكز على التماثل الدلالي بين (ناكلين[٣٩]/ مخوفين)، وقد تقدم القول: إنَّ التوازي ينعقد في الغالب على المماثلة حين يتعلق الأمر به (عليه السلام) أو بآل البيت (عليهم السلام)، فتكون العبارة الثانية بمثابة التوكيد للعبارة الأولى.

قطاف البحث

للبحث قطاف أضعها بين يدي القارئ منها:

(١) ينتمي كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) بوصفه خطاباً إلى حقل الخطابات السياسية، والخطاب السياسي أيَّما كان فضاؤه فلا بدَّ له من متلقٍ مؤيد وآخر معارض، لكن الجديد في هذا الخطاب هو وجود متلقٍ أول (معاوية) ومتلقٍ ثانٍ (أنصار أمير المؤمنين وأنصار معاوية والناس جميعاً)، ولما كان المتلقي الأول معاند لم يقتنع من قبل ولن يقتنع فقد كان أمام خطاب أمير المؤمنين مهمتين: الأولى ردّ حجج المتلقي الأول وافحامه، وتحقيق الإقناع للمتلقي الثاني.

(٢) ينطلق البحث من فرضية مفادها أنَّ لكل خطاب حجاجي استراتيجية تحكم النص وتوجه

آلياته الحجاجية: لغوية كانت أم منطقية، وهكذا كان هذا الخطاب، إذ كانت استراتيجية الاستخفاف والتهميش هي الاستراتيجية المهيمنة على مفاصله فاستجابت لها عناصر النص بوضوح.

(٣) يغلب على الحجاج في هذا الخطاب الابتداء بالمقدمات ثم الدعوى (النتيجة) سواء كانت النتيجة ضمنية أم صريحة ثم يدعم حجته بالأدلة، وهذا هو الشكل الذي يتسم بالمنطقية وهو أُس الحركة الحجاجية المتنامية في الخطاب، وهو الشكل الذي يغلب على الخطابة العربية عموماً.

(٤) يهيمن على خطابه (عليه السلام) تبني دعوى مركزية واحدة تمثلت بافتضاح أكاذيب خصمه، وإن كانت هناك دعاوى ثانوية إلا أنها في جوهرها جزء من الدعوى الأم.

(٥) أزعم أنَّ الإمام (عليه السلام) في خطابه هذا ركز على رصد النكت في كلام خصمه فبنى مقدماته عليها، ولا يُعنى كثيراً بكلامه كله، ومن قبيل ذلك:

(أ) ذكر معاوية فضل الله على الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله).

(ب) المفاضلة بين الصحابة السابقين في الإسلام.

(ج) مظلومية عثمان بن عفان.

(٦) بعد انتخاب الحجج التي اطلقها الخصم عمد أمير المؤمنين إلى ردِّها على وفق استراتيجيته (الاستخفاف) لكنَّه نوَّع بطريقة توظيفها فكانت على النحو الآتي:

(أ) قطع صلة الخصم بحجته: وقد وظفها (عليه السلام) في ردِّ الحجتين (١، ٢) من النقطة السابقة.

(ب) قلب الحجة: عمد (عليه السلام)

إلى توظيف حجج خصمه عليه بوصفها حججاً داعمة لموقفه من خلال قلب هذه الحجة على منتجها (معاوية) كما جرى مع الحجة (٣) في النقطة السابقة.

(٧) يحرص (عليه السلام) على تدعيم حججه بآيات من القرآن الكريم أو الشعر العربي والحكم والأمثال المأثورة، لما لها من أثر في إقناع وإفحام متلقيه.

الهوامش

(١) أهم نظريات الحجاج: ٣٠٠.

(٢) النص والخطاب والاتصال: ١٤٩.

(٣) مصطلح الحجاج بواعثه وتقنياته: ٢٧٥، عباس حشاني (مجلة المخبر، ع ٩، لسنة ٢٠١٣).

(٤) ينظر النص والخطاب والاتصال: ١٤٨.

(٥) ينظر شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد): ١٥/ ١١٣.

(٦) نهج البلاغة: ٤٦٨.

(٧) نفسه: ٤٧٠.

(٨) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ١١٦.

(٩) ورد بشرح محمد عبده (تأييدَهِ) والصواب ما أُثبت في المتن.

(١٠) ورد عند ابن أبي الحديد (خَبَأ) بتخفيف الباء والصواب ما أثبت من شرح محمد عبده.

(١١) نهج البلاغة: ٤٦٧.

(١٢) مفردات في غريب القرآن: ٧٠٠.

(١٣) ينظر الجدل في القرآن، (الرازي): ٢٣٢- ٢٣٣.

(١٤) الحجة غير المصنوعة: والمقصود بها تلك الحجة التي لم نبتكرها نحن بل هي موجودة قبلاً كالشهود والصكوك والحوادث، ومنها ما شاع في الخطبة العربية من تضمين الخطب آيات قرآنية أو حكم وأمثال مأثورة عن السلف، فضلاً عن الشعر العربي، وتكتسب هذه الحجج قوتها التأثيرية من مصدرها ومصادقة الناس عليها. (ينظر بلاغة الخطاب الإقناعي: ٢٤، ٩٠).

(١٥) الحجة المصنوعة: ويراد بها كل ما يمكن إيجاده من لدن المتكلم من أدلة ينسجها بفطنته وذكائه واجتهاده. (ينظر في بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري: ٢٤).

(١٦) ينظر النص والخطاب والاتصال: ١٥٤.

(١٧) البرهان في وجوه البيان: ١٧٩.

(١٨) سورة الفتح:الآية: ٢٩.

(١٩) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ١١٦.

(٢٠) نهج البلاغة: ٤٦٧- ٤٦٨.

(٢١) الاستفهام الحقيقي هو أن يوافق لفظه معناه، وهو طلب الفهم وانتظار الإجابة من المخاطب، على حين في الاستفهام الحجاجي يسأل المتكلم عمَّا يعرفه ويفهمه وقد أطلق عليه البلاغيون العرب مصطلح (الاستفهام المجازي) ويريدون به خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي (طلب الفهم) إلى معان مجازية كالتعجب والإنكار وغيرها. (لمزيد من التفصيلات ينظر في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات: ٣٨، وآفاق جديدة في البحث النحوي المعاصر: ٧٩).

(٢٢) وردت عند ابن أبي الحديد (ظَلْعك) بسكون اللام، ينظر شرح نهج البلاغة: ١٥ / ١١٣.

(٢٣) نهج البلاغة: ٤٦٨.

(٢٤) الأنفال: ٧٥.

(٢٥) سورة آل عمران:الآية: ٦٨.

(٢٦) نهج البلاغة: ٤٦٨ – ٤٦٩.

(٢٧) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ١١٧.

(٢٨) البيت لأبي ذؤيب الهذلي وتمامه:

وعَيَّرها الواشونَ أنّي أُحبُّها

وتلكَ شكاةٌ ظاهرٌ عنكَ عَارُهَا

ديوان أبي ذويب: ٦٤.

(٢٩) نهج البلاغة: ٤٧٠.

(٣٠) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ١١٧.

(٣١) والخِشاش هو ادخال خشبة في عظم أنف البعير لينقاد وخششت البعير فهو مخشوش. ينظر لسان العرب: (خشش): ٦/ ٢٩٦.

(٣٢) نهج البلاغة: ٤٧٠.

(٣٣) سورة الأحزاب: الآية ١٨.

(٣٤) البيت في جمهرة الأمثال منسوب لعمارة بن عقيل: ٢/ ١٦١، وفي التذكرة الحمدونية منسوب للأقرع الآبي: ٧/ ١٠١، وتمامه:

وكم سُقتُ في آثاركُم من نصيحةٍ

وقد يستفيدُ الظَّنَّةَ المتنصحُ

(٣٥) سورة هود: الآية: ٨٨.

(٣٦) نهج البلاغة: ٤٧١.

(٣٧) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ١١٧.

(٣٨) نهج البلاغة: ٤٧١.

(٣٩) الناكل: الجبان الضعيف، ينظر لسان العرب: (نكل) ١١/ ٦٧٨.

جريدة المظان

* القرآن الكريم

(١) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د. محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٢م.

(٢) أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، فريق البحث في البلاغة والحجاج، اشراف حمادي صمود، من مطبوعات كلية الآداب بمنوبة/ جامعة الآداب والفنون والعلوم الانسانية، تونس (١).

(٣) البرهان في وجوه البيان، تأليف أبي الحسن اسحق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تحقيق وتقديم الدكتور محمد حفني شرف، مكتبة الشباب، مطبعة الرسالة، مصر.

(٤) التذكرة الحمدونية، تأليف محمد بن الحسن بن محمد بن علي الشهير بابن حمدون، تحقيق إحسان عباس، وبكر عباس، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١/ ١٩٩٦م.

(٥) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (٤٠٠هـ) حققه وعلَّق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، دار الجيل، ودار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢/ ١٩٨٨م.

(٦) ديوان أبي ذؤيب الهذلي، تحقيق وتخريج الدكتور أحمد خليل الشال، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، بور سعيد، مصر، ط١، ٢٠١٤ م.

(٧) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق: محمد إبراهيم، دار الكتاب العربي، بغداد، ط١، ٢٠٠٧م.

(٨) في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول انموذجاً، تأليف الدكتور محمد العمري، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، ط٢/ ٢٠٠٢م.

(٩) في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، الدكتور عبد الله صولة، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط١/ ٢٠١١م.

(١٠) لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين بن منظور (٧١١هـ)، دار صادر، لبنان.

(١١) مصطلح الحجاج بواعثه وتقنياته، الاستاذ عباس حشاني، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد (٩) لسنة ٢٠١٣م.

(١٢) المفردات غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني (٥٠٢هـ) مكتبة نزار مصطفى الباز، د. ت.

(١٣) النص والخطاب والاتصال، الاستاذ الدكتور محمد العبد، الاكاديمية الحديثة للكتاب

الجامعي، القاهرة، ٢٠١٤م.

(١٤) نهج البلاغة الجامع لخطب ورسائل وحكم أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب عليه السلام شرح محمد عبده، أشرف على تحقيقه وطبعه عبد العزيز سيد الأهل، منشورات مكتبة التحرير، د. ت .

(١٥) نهج البلاغة، وهو مجموع ما اختاره الشريف أبو الحسن محمد الرضي بن الحسن الموسوي من كلام أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب عليه السلام، تحقيق الشيخ فارس حسون.

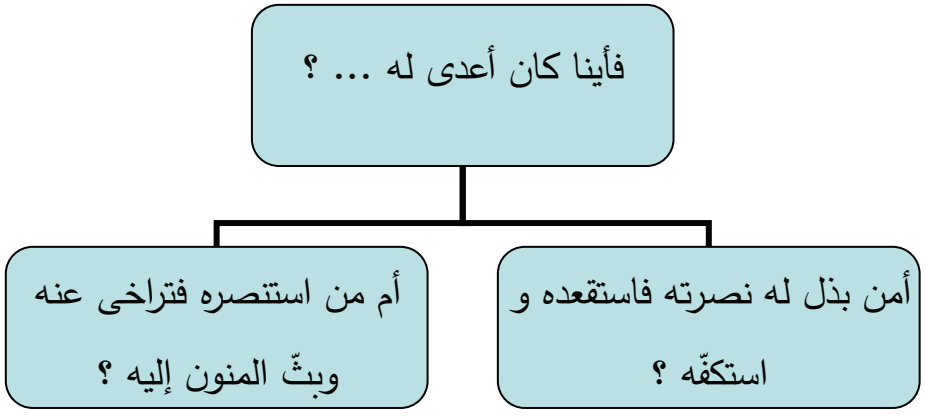

شكل رقم (١)